

تطور مصطلح الازدواجية و الثنائية اللغوية بين المتقدمين و المحدثين.

أ. خضر سنوسي

جامعة تلمسان

قضية العامية والفصحى ليست أمراً جديداً أو طارئاً، فلطالما كان الاختلاف بين اللهجات قائماً قبيل الإسلام، حتى راح اللغويون العرب يجمعون اللغة من بعض القبائل العربية التي كانت لهجاتها قريبة من لغة الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، فاقتصر عملهم على تلك القبائل التي لاحظوا في خصائصها ما يشبه اللغة الفصحى، وأهملوا تلك اللهجات التي رأوا فيها اختلافاً عن النمط "الصحيح" حتى أصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعاً. وقد لاحظ اللغوي ابن منظور تلك التزعة إلى العامية وانتشار اللحن في القرن الثالث عشر الميلادي، فذكر في مقدمة معجمه "لسان العرب" في سبب وضعه لمعجمه: "...وذلك لما رأيت قد غلب في الأوان من اختلاف الألسنة والألوان حتى أصبح اللحن في الكلام يُعدُّ لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايير معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية وتفاحوها في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون وَصَنَعْتُهُ كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون"¹.

فالازدواجية اللغوية وتعدد اللهجات، من أهم القضايا الرئيسية التي ما زالت محل دراسة إلى يومنا هذا بسبب تحديات داخلية تؤثر على حيوية اللغة العربية والوظائف التي تقوم بها و تحديات خارجية ممثلة في الاستعمار والعولمة، و اللغة العربية تعتبر حالة نموذجية لما يسمى "ازدواجية اللغة" أي وجود منظومتين لغويتين إحداهما اللغة الفصحى والأخرى اللغة العامية. و تاريخ الازدواجية في اللغة العربية وجد القليل من الباحثين من يشير إلى امتدادها إلى العصر الجاهلي² لكنها ازدواجية سطحية ليست كما هي الحال اليوم، لأن غطى اللغة الذين استخدمهما الجاهليون معربان " فقد كانوا يستخدمون في لقاءاتهم التي يتواصلون بها في مواسم خاصة معروفة كمواسم الحج، والتجارة، وأسواق عكاظ، وذي الحجة، لغة راقية، يقولون بها الشعر، ويخطبون، وينافرون بعضهم بعضاً، ويستعملونها ليتفاهموا بها، حتى في أحاديثهم العادية أثناء تلك اللقاءات، فإذا رجعوا إلى قبائلهم استعملوا نمطاً أقل رقياً، وأدنى مرتبة، مع كون النمطين معربين، و " كانت اللهجات المصاحبة للفصحى لم يكن اللغويون الأوائل وأئمة اللغة يسمونها لهجات وإنما كانوا يسمونها لغات، وهي عندهم حجة وإن كانت شاذة والدليل على ذلك إجابة أبي عمرو بن العلاء عن سؤال من قال له : ماذا تفعل إذا خالفتك العرب وهم حجة ؟ قال: "أعمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات"³ بحكم أن هذه اللهجات الخاصة ببعض المناطق وبعض القبائل العربية لم تخالف العربية الفصحى في الجمل والتراكيب وإنما كانت أوجه الاختلاف تظهر في الحركات أو إبدال بعض الحروف أو الهمز والتلين مثلاً.

هذا الاختلاف لم يمس جوهر اللغة الواحدة من حيث البنية ولا من حيث الجذور والاشتقاق ، ولهذا ظلت تلك اللغات (اللهجات) كلها حجة عندهم ومن هؤلاء ابن جني الذي أفرد باباً كاملاً هو (اختلاف اللغات وكلها حجة)⁴ . و أئمة اللغة من النحاة واللغويين لم يغفلوا عن ظاهرة اللغات (اللهجات) فقد أشاروا إليها في ثنايا الدرس النحوي وسموها لغات وهي في نظرهم ما خالف المطرد من كلام العرب مما أسموه شاذاً أو نادراً أو قليلاً⁵.

أما البذور الحقيقية للازدواجية فقد تمثلت في اختلاط العرب بالممالك ، و بأهل الأمصار المفتوحة الأمر الذي وسع الفجوة بين اللغة و اللهجات، " ويمثل انحسار الإعراب أقوى العوامل في هذا الصدد الذي أفضى إلى الازدواجية، فهو الذي أصبح فارقاً أصولياً حاسماً بين الفصحى والعامية"⁶ . ثم تتالى الاستعمار على البلاد العربية محاولاً ضرب اللغة الأم كمقوم أساسي

للأمة عن طريق فرض لغته والدعوة إلى تشجيع العامية التي يرى فيها العديد من الباحثين بأنها حالة ازدواجية مرتبطة بالاستشراق ، إذ أصبحت من أهداف المستشرقين الذين يريدون ضرورة معارضة اللغة الفصحى لغة القرآن ، وتقدم جماعة من الغربيين ما بين مهندسين وقضاة للتأليف بالعامية وجمع التراث المزيف حتى تنتقل الدعوة من الكلام عن اللهجة إلى ما يطلق عليه لغة عامية في هذه المناطق قبل الإسلام⁷.

فالعامية مرتبطة بالاستشراق وأهدافه الخبيثة التي من خلالها يريد هدم الأمة الإسلامية وإقصاء القرآن أساساً وما تعللوا به هو أن اللغة الفصحى هي التي عاقت المصريين عن الاختراع ، وأن اللغة العربية ماتت بسبب جمودها وصعوبتها ومن الذين دعوا إلى العامية ذهبوا إلى أن اللغة العربية الفصحى فقيرة في المعاني الجديدة والمصطلحات العلمية وغناها بالمعاني والمسميات القديمة⁸.

وفي إشارة إلى أقدمية الازدواجية وصف المقدسي محمد بن أحمد (336 - 380 هـ) حال اللغة في أقاليم الدولة الإسلامية الجزيرة وغيرها، ووصف بدقة حال الازدواج اللغوي بين العربية والعاميات، وبين اللغة العربية وغيرها من اللغات الأعجمية، والازدواج الثلاثي بين الفصحى والعاميات واللغة الثالثة (غير العربية) ، فكان مما قاله " وستكلم في كل إقليم بلسانهم ، ونناظر على طريقتهم ، ونضرب من أمثالهم لتعرف لغتهم ، ورسوم فقهاءهم ، فإن كنا في غير الأقاليم تكلمنا بلغة الشام ؛ لأننا إقليمي الذي به نشأت ، ونأظرت على طريقة القاضي أبي الحسين القزويني ؛ لأنه أول إمام عليه درست ، ألا ترى إلى بلاغتنا في إقليم المشرق ؛ لأنهم أصح الناس عربية ؛ لأنهم تكلفوها تكلفاً ، وتعلموها تلقفاً ثم إلى ركاكة كلامنا في مصر والمغرب ، وقبحه في ناحية البطائح ؛ لأنه لسان القوم ، لأن قصدنا في هذا الأصل الإنهاء والتعريف ، لا المبالغة والتشفييف " .

وقبل التوسع أكثر في الحديث عن الازدواجية اللغوية لا بد لنا من التفريق بينها وبين الثنائية اللغوية وهي وجود مستويين لغويين مختلفين ليسا من نفس النظام اللغوي في لغة قوم وعلى بقعة جغرافية محددة ومثالنا على ذلك وجود اللغة العربية والفرنسية في لغة سكان المغرب العربي.

لقد ميز الباحثون في حال اللغة العربية بين الثنائية و الازدواجية اللغوية و التبتت التعريفات فاستخدم اللفظان كأشكالهما أحيانا مرادفان لا فرق بينهما، و أحيانا كمفهومين مختلفين يدلان على ظاهرتين منفصلتين، و انطلقت هذه التعريفات من مواقف إيديولوجية مسبقة لم تستند إلى تعريفات علمية دقيقة فنظرت إلى ظاهرة الازدواجية في اللغة العربية على أن الفصحى و العامية لغتان منفصلتان فاعتمدوا لفظ الثنائية للدلالة على تلك الظاهرة في اللغة العربية متوهمين وجود فصل عضوي بين الفصحى و العامية، و استندت تعريفاتهم كذلك إلى المصادر اللغوية الأجنبية فتأثروا بنهج الترجمة في اختيارهم للألفاظ العربية للدلالة على المفهوم فتعددت الترجمات و الألفاظ بين الثنائية و الازدواجية رغم تشابه أو تطابق التعريفات التي جاؤوا بها للفظ الأجنبي bilingualism ثم انفصل اللفظان العربيان عن أصلهما في اللغة الأجنبية و اكتسبا كيانا لغويا و فقهما و فلسفيا يخضع في استخدامهما لخلفيات و نظريات و إيديولوجيات و عقد نفسية و اجتماعية و تاريخية مختلفة . وكمثال على هذا الاختلاف الناشئ عن الترجمة يرى الدكتور إميل يعقوب 1982 أن ازدواجية اللغة هي وجود لغتين مختلفتين عند فرد أو جماعة في آن معا و يردّها إلى أصلها الفرنسي le bilinguisme ، و يؤكد أن هذا المصطلح لا ينطبق على اللغة العربية لأن العامية و الفصحى ليستا لغتين منفصلتين لذا وجب استخدام مصطلح الثنائية و هنا يردّها إلى أصلها الفرنسي diglossie فاختياره للمقابل العربي في كلتا الحالتين متأثر بنهجه في الترجمة و تعريفه للفظي الازدواجية و الثنائية في اللغة العربية.

يرى عبد الحميد عبد الواحد 2007 أن الثنائية اللسانية هي ما يعبر عنها بالالتقاء الحاصل بين اللسان العربي الفصيح و اللهجة أو اللهجات الدارجة.

و يرى بعض الباحثين بأن مصطلح الثنائية اللغوية ظهر لأول مرة سنة 1885 بقلم الكاتب اليوناني إمانويل غواي (Emanuil Roidis) لوصف الوضعية اليونانية، حيث يوجد بها مستويان لغويان مختلفان "كثارفوسا" و "دموتيكي" (domitiki-katharevousa)، وقد أخذ هذا الأخير من الإغريقية القديمة diglottes ، والذي كان يعني استعمال لغتين عموما. ثم استعمل هذا المصطلح من قبل باحثين آخرين، من بينهم ياني بسشيارى Psichari jean حين دعا إلى ضرورة أن تحظى لغة domitiki بشرعية دستورية. إلا أن الفضل يعود إلى العالم الأمريكي تشارلس فيرغسون (Charles ferguson) في توسيعه لمفهوم هذا المصطلح؛ حين نشر مقاله (diglossie) سنة 1959، و استعمله لوصف كل الوضعيات الاجتماعية حيث يوجد نمطان أو أسلوبان مختلفان من نفس اللغة يستخدمان في مجتمع واحد، في مجالات ووظائف مختلفة ؛ واحد من هذين الأسلوبين يتمتع عموما بوضعية اجتماعية أعلى من الآخر، يطلق على الشكل الأول ب الشكل الراقى (variété haute) والشكل الأقل منه باسم الشكل الأدنى (variété basse).

عرف فيرغسون الثنائية اللغوية بأنها " وضعية لغوية مستقرة نسبيا يوجد بها نوع مواز مختلف جدا راقى الترميز(أكثر تعقيدا) يحمل مجموعة من الآداب المكتوبة أوفي اللغة المنطوقة، ولكنها لا تستعمل في المحادثة العادية في أي من أجزاء الجماعة، هذا بالإضافة إلى وجود الأشكال اللهجية التي قد تتضمن نماذج جهوية".

ويطلق شارل فرجسون (Ferguson charles) على الفصحى النمط العالي بينما يطلق على العامية النمط الدوني، ويعكس النمط الأخير موقعه داخل الجماعة التي لا تحترمه واصفة إياه بنعوت سيئة بينما يحتل النمط الأول مرتبة رفيعة كتراث ثقافي وديني.

قام الباحثون بعد ذلك بتعديل تقسيم فرجسون في ثلاث نقاط:

أولاً: إذا كان فرجسون قد حصر النمط الدوني في كونه منبثقا من النمط العالي فإن الباحثين يعتبرون الازدواجية اللغوية تعبيراً عن تنوع البنى الاجتماعية اللغوية داخل الجماعات اللغوية.

ثانياً: إن عدم تكافؤ القدرة اللغوية في استخدام النمطين جعل الباحثين يميزون بين توجهين اقترحهما فيشمان (Fishman Joshua) : الجانب الاجتماعي اللغوي يستخدم خلاله مصطلح الازدواجية اللغوية ، ثم الجانب النفسي و يستخدم فيه مصطلح التعدد اللغوي الذي يرادف تمكن المتكلم لأزيد من نمط لغوي واحد.

ثالثاً: إجراء تعديل يتجاوز سيادة الاعتقاد القائم في استخدام نمط أحادي دون الآخر مادامت منطوقات المتكلم توجد على خط يشمل تنوعات لغوية.

هناك أيضا من العلماء من اقترح مصطلح اللغة الوسطى الدال على نمط يقع بين طرفي العامية والفصحى. لكن السعيد بدوي رفض هذه التقسيمات الثنائية باقتراح جدول يتضمن خمسة مستويات لغوية.

فالثنائية اللغوية ظاهرة موجودة في أغلب المجتمعات، لأن أغلب لغاتها يوجد بها هذا التنوع (الراقي، الأدنى) يقول كمال بشر " لا تخلو لغات كثيرة من ازدواجية diglossia في التوظيف في الحياة العامة و الخاصة والازدواجية تعني وجود نمطين من اللغة يسيران جنبا إلى جنب في المجتمع المعين ، يتمثل الأول فيما أشرنا إليه سابقا وأطلقنا عليه مصطلح اللغة النموذجية والتالي هو ما جرى العرف على تسميته على ضرب من التعميم اللغة المحكية" ، و هي تعني أيضا استعمال الفرد أو المجتمع لمستويين لغويين من نفس اللغة، وتجدد الإشارة إلى أن مصطلح الثنائية اللغوية الذي ظهر عند فيرغسون لا يعني به إلا

الوضعية الجماعية، أي كظاهرة اجتماعية وليست فردية ، هذه الأخيرة التي اختار لها مصطلح الازدواجية *bilinguisme* إلا أن فيشمان *fishman* وسع من مفهوم الثنائية اللغوية ، إذ لم يعد مقتصرًا على وجود شكلين من لغة واحدة و إنما بوجود لغتين في المجتمع ، ولكنه ركز في تحليله على المستويين اللغويين لنفس اللغة مثل فيرغسون. وقد نهج فيشمان طريق فيرغسون و فنيش في تحديده لمفهوم الازدواجية اللغوية ؛ حيث اعتبرها مجرد ظاهرة فردية ، ودراستها من اختصاص علم النفس ، إلا أن هذا لم يمنعه من محاولة الربط بين الثنائية اللغوية و الازدواجية فوضح هذه العلاقة على الشكل التالي :

- ازدواجية لغوية دون ثنائية لغوية.

- ثنائية لغوية و ازدواجية لغوية.

- لا ثنائية لغوية و لا ازدواجية لغوية.

- ثنائية لغوية دون ازدواجية لغوية.

يرى آخرون بأن ويليام ماركيز (1930) يعتبر أول من وضع مصطلح الازدواجية اللغوية مقترضاً إياه من الحالة اللغوية اليونانية والقسم الألماني من سويسرا حيث يتم التمييز بين العامية بوصفها لغة تستعمل لغرض تواصلية مقابل الفصحى ذات الوظيفة الكتابية، و أن أول من تكلم عنها بالعموم هو بيسياري في نهاية القرن التاسع عشر وقد قصد بها حالة اللغة الإغريقية وبعد ذلك في ثلاثينيات القرن العشرين تحدث وليام مارساي عن حالة اللغة العربية. ولكن مع شارل فيركسون دخلت الازدواجية اللغوية ضمن علم اللغة الاجتماعي الذي " يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة و الحياة الاجتماعية ، و بين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة " (1) وذلك في مقاله " الازدواجية اللغوية " سنة 1958، والتي ضرب بها مثلاً اللغة العربية.

في حين يرى البعض الآخر بأن كلمة "ازدواجية" ترجمة للمصطلح الإنجليزي "Diglossia"، و يُعتقد أن أول من تحدث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الألماني كارل كرمباخر (Krumbacher 1902) في كتاب له صدر عام 1902، تطرّق فيه إلى طبيعة هذه الظاهرة وأصولها وتطورها، وأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص إلى نتائج تفسر كثيراً من التطورات المتأخرة لبعض الدعوات في العالم العربي، إذ اقترح على اليونانيين ترك "ازدواجيتهم الشرقية" واللاحاق بالعالم الغربي، بتبني العامية لغة قومية، و دعا كذلك العرب إلى ترك فصيح لسانهم وتبني إحدى اللهجات - مفضلاً المصرية - لغة قومية.

ويعد العالم الفرنسي وليم مارسيه (William Marçais 1930) أول من نحت الاصطلاح بالفرنسية (*La diglossie*) وعرفه في مقالة تخص الازدواجية في العربية عام 1930 بقوله: "هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث". و في تعليق على التعريف الذي قدّمه فيرجسون (Ferguson 1959) للازدواجية اللغوية قائلاً : "حالة لغوية ثابتة نسبياً، يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية (التي ربما تضم نمطاً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم) نمط آخر في اللغة مختلف، عالي التصنيف (وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية النحوية) فوقى المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة. وبتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية"

يرى دل هيمز (Dell Hymes 1964) اللغوي الاجتماعي الأميركي تعليقاً على مقالة فيرجسون إن الازدواجية مثال ممتاز لتعايش نظامين غير متبادلي الفهم (ويقصد هنا الفصحى والعامية، وصعوبة فهم الفصحى على العوام) وتربط كل من

هذه الأنظمة بمفاهيم وقيم مختلفة، وكمثال لضرورة الرجوع إلى الجماعة المحلية للتحكيم لتجنب أي تحريف أو تشويه قد ينشأ بحالة الاتصال. وكذلك تعرض لهذه الظاهرة بالدرس كل من جمبيرز (1962, 1967, Gmpers) وفشمان (1972 Fishman)؛ فقد أضاف جمبيرز في أعماله الكثيرة ذات الصلة بهذه الظاهرة أن الازدواجية ليست حصراً في المجتمعات المتعددة اللغات، التي تعترف رسمياً بعدة لغات، ولا في المجتمعات التي تتكلم أنماطاً عامية وفصحى، ولكن في المجتمعات التي تستخدم لهجات منفصلة، أو أساليب مختلفة، أو أي أنماط أخرى تخدم وظائف مختلفة. كذلك بحث النماذج الاجتماعية التي تحدد استعمال نمط دون آخر.

ومنذ دعوة فيرجسون للغويين لدراسة هذه الظاهرة عام 1959 أوضحت الدراسات لهذه الظاهرة وبخاصة في الغرب تتوالى وبشكل أصبح من الصعب حصرها لكثرتهم ففي دراسة بيبولوجرافية حديثة النشر نسبياً قام بها هدسون (1992 Hudson) تمكن من حصر ما مجموعه "1092" مادة علمية منشورة عن الازدواجية جُلّها في الإنجليزية.

وقد عرفها مار وزو بأنها " حالة الفرد و الجماعة في استعمال لغتين دون تفضيل لإحدهما على الأخرى " ، أما المعاجم المتخصصة فإنها تشير إلى الازدواجية اللغوية في إطار التخصص حيث يعرفها دي بوا بأنها " الوضع اللغوي الذي يستعمل فيه المتكلمون لغتين مختلفتين حسب البيئة الاجتماعية و الظروف اللغوية " ⁹ ، أما الموسوعة الجغرافية فيؤكد أندري فيها بأنها " الوضع الذي توجد فيه لغتان في نفس البلد إحدهما لغة الأغلبية و الأخرى لغة الأقلية و لهما نفس الوضع القانوني و الإعلامي و كذلك في الدوائر الحكومية مثال ذلك بلجيكا كندا فنلندا سويسرا دول المغرب العربي و جمهورية جنوب إفريقيا " ¹⁰ .

وقد أشارت تعريفات أخرى إلى القدرات الفكرية و اللغوية للأفراد المزدوجي اللغة كما أشار بلومفيلد " بأنها قدرة الفرد في التحكم في اللغة الثانية بسهولة مشاهة للتحكم في استعمال اللغة الأم " و يري أن الازدواجية تعني حيازة الكفاءة اللفظية كالمتكلم بلغته الأصلية في كل من اللغتين.

أما جورج مونان فيعرف هذه الازدواجية " بأنها قدرة الفرد في استعمال لغتين أو أكثر " ¹¹ .

و من تعدد التعريفات المختلفة لظاهرة الازدواجية نلاحظ مدى الصعوبة في تحديد مفهوم عام و شامل لها و مع ذلك نقول أن الازدواجية هي الوضع اللغوي الذي يستعمل فيه الفرد أو الجماعة لغتين بالتناوب و حسب الظروف و القدرات.

أما ماريني يرى أن مزدوج اللغة هو الشخص الذي يمارس لغتين وطنيتين بنفس الكفاءة و هناك من يرى أن الازدواجية اللغوية تعني امتلاك وسيلة مضعفة ضرورية أو اختيارية للاتصال الفعال بين عالين مختلفين أو أكثر بواسطة نظامين لغويين هذا يعني بأن الدخول في لغة أخرى يعني الدخول في عالم جديد والاندماج مع طائفة أخرى ورؤية الحقائق بشكل جديد، ولا يتعلق الأمر بترجمة ما يقال في اللغة الأولى إلى اللغة الجديدة واستخدام مفردات وأصوات أخرى، وإن كل لغة من لغتي المزدوج تصبح أداة لحمل فكرته، ووسيلة لتمثيل العالم المحيط به (أي أنه يملك أداتين للتفكير ونظاميين ثقافيين).

يقول "تيتون" أنها القدرة على التعبير بلغة ثانية مع احترام المفاهيم والبنى الخاصة بها، دون اللجوء إلى ترجمة باللغة الأم، و يشبه "أو كامبس" الازدواجية اللغوية بالحالة التي تتواجد فيها لغتان جنبا إلى جنب حيث تستعمل كل لغة من طرف جماعة وطنية تمثل نسبة هامة من المجتمع، وهذا ما ينطبق على وضعية الطفل الأمازيغي المتمرس، الذي يستعمل اللغة المحلية خارج المدرسة بينما يستعمل اللغة العربية داخلها أو عند ضرورة استعمالها، و من الباحثين فريق رأى أن الازدواجية اللغوية هي امتلاك لغتين من قبل شخص أو مجموعة كأن يتكلم المرء الفرنسية والإنجليزية و يستعملهما. ¹²

و عموما فالثنائية اللغوية La diglossie تعني في الوطن العربي أن يتكلم الناس في البلد لغتين الأولى العربية التي تستخدم في المجالات الرسمية كالحياة والتعليم والإعلام والبرلمان وكتابة القوانين، والثانية لغة محلية (غير عربية) تستخدمها مجموعة من المواطنين للتواصل فيما بينها، بينما تستخدم اللغة السائدة للتواصل مع الآخرين¹³، أما الازدواج اللغوي Le bilinguisme والذي يقصد به وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما أو جماعة ما في آن واحد¹⁴(12)، فقد اختلف اللسانيون حول مفهومه فبعضهم يطلقه على وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أي لغة للحديث وأخرى للعلم والأدب والثقافة والفكر، وبعضهم يطلقه على وجود لغتين مختلفتين (قومية وأجنبية) عند فرد أو جماعة ما في آن واحد، أي إنه ومصطلح (الثنائية) يتبادلان الموقع عند الباحثين، وأفضل إطلاق مصطلح الازدواج اللغوي على المفهوم الأول لأنه أشيع بين الباحثين ولأن المعجم يدعم هذا.

و بعض الباحثين يرفضون استعمال مصطلح " الازدواجية " الذي يستخدمه الكثير من اللغويين¹⁵ للدلالة على شكلي اللغة العربية الفصحى و العامية¹⁶ ذلك أن العامية و الفصحى فصيلتان من لغة واحدة، و الفرق بينهما بالتالي فرق فرعي ، لا جذري، و عليه فالازدواجية الحق لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين ، كما بين الفرنسية و العربية ، أو الألمانية و التركية . أما أن يكون للعربي لغتان إحداهما عامية و الأخرى عربية فصيحة فذلك أمر لا ينطبق مفهوم الازدواجية عليه¹⁷، إنه بالأحرى ضرب من " الثنائية اللغوية diglossie " و بالتالي فأمر الفصحى و العامية نوع من الثنائية، و ذلك لأنهما فصيلتان من لغة واحدة .

ومن بين أبرز العوامل التي عملت على تكريس الازدواجية اللغوية في البلدان العربية خاصة، نذكر ما يلي:

- الاحتلال بأشكاله و أساليبه المختلفة.
 - الدعوة إلى التخلي عن اللغة العربية الفصحى ، و استبدالها بلهجة أو لغة أخرى أكثر سهولة .
 - الدعوة إلى التخلي عن حركات الإعراب .
 - الدعوة إلى استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني .
 - ضعف مناهج التدريس و قصورها في منهجية تعليم اللغة العربية .
 - تنامي سيطرة اللغات الأجنبية .
 - الشعور بصعوبة اللغة العربية الفصحى ، لما تحويه من قواعد نحوية و صرفية و إملائية جامدة معقدة .
 - الإحساس بالانهزامية النفسية لدى مستخدمي اللغة العربية .
- و قد اتخذت الازدواجية أشكالا حسب علاقة النظامين اللغويين الأول والثاني بالنظاميين الثقافيين الأصلي والأجنبي نجد ثلاثة أنواع من الازدواجية اللغوية:

■ الازدواجية اللغوية التكميلية (le bilinguisme additif): تُستخدم اللغة الأولى مثل اللغة الثانية وكل واحدة ذات مرجع ثقافي خاص بها.

■ الثنائية اللغوية (la diglossie): يميل اللغويون لتعيين تحت عبارة الثنائية اللغوية وضعية سوسيو-لغوية، حيث تُوضَّح بتنافس لهجتان ذات وضع اجتماعي ثقافي متباين إحداهما معتبرة محليا ويعني شكلا لغويا مكتسبا أوليا ومستخدمما في الحياة اليومية، والثاني يمثل اللغة التي تستعمل في بعض الظروف ومفروضة من قبل الذين يمثلون السلطة. ويمكن لهذه الثنائية اللغوية أن لا تمس إلا جزءاً فقط من الطائفة المعنية،

■ الازدواجية اللغوية الناقصة أو شبه الازدواجية (le bilinguisme soustractif): الثقافتان الأصلية والثانية تتدخلان دائما في استعمال سواء اللغة الأصلية والثانية دون وعي، وتتضح في عدم إتقان أي من النظامين اللغويين.

وبالبحث في هذا الموضوع يلمس حتما تعارضا بين قابل للازدواجية اللغوية و بين رافض لها ، بحيث نجد كل طرف يعلل موقفه، فالداعون إليها والواقفون منها موقفا إيجابيا يرونها مصدرا من من مصادر المعرفة، فالمعرفة اليوم متوفرة باللغة الإنجليزية أساسا، وفي بعض اللغات الأوروبية، الفرنسية والألمانية، والروسية والصينية. عن طريق الوصول إلى كفاءة عالية في اللغات الأجنبية، وخاصة الإنجليزية، وللقيام بذلك هنالك حاجة لجهاز تعليم عربي قادر على توفير الخدمة لجميع طلابه، و القيام بعملية تعريب للمصطلحات وترجمة للنصوص ، فهي بالنسبة إليهم تنوع لغوي مُثْرٍ إذا ما أجاد العربي لهجته المحلية التي تؤدي وظائف محددة، وتعطى اللغة المعيارية فرصة القيام بوظائف أخرى، فمن المحدثين من اعتقد أن العربية لا تناسب تعليم العلوم الحديثة، ويجب استعمال أحد اللغات الأوروبية في هذا الصدد، وهنالك من ذهب إلى أبعد من هذا وتحدث عن صلة إيجابية بين العربية والتخلف، ليس فقط في المجالات المادية الملموسة، وإنما أيضا في المناحي الثقافية والاجتماعية بهذا المفهوم، فالعربية هي حجر عثرة أمام التحديث، و بعضهم يستدل بحديث الرسول صلى الله عليه و سلم : "من تعلم لغة قوم أمن شرهم" باعتبار أن اللغة الثانية تساعد على النمو الفكري، وتستعجل نمو بعض المهارات الذهنية والاستعدادات العقلية، وبالتالي تسمح بالمرونة في المجالات اللفظية والإدراكية عند الازدواجي، و هذا النمو يخدم المصالح الاجتماعية والثقافية والسياسية نظرا لترابطها وتشابكها خاصة في عصرنا الحالي.

واللغة العربية الفصحى لا يضارها كثيرا قيام لهجات محلية أو لغة خطاب يومي دارجة ، يتداولها العامة ، وتقضي بها شئون الحياة اليومية ، يقول د. محمد محمد حسين: " وكل دارس للغات والمجتمعات يعرف أن ما يسمونه (الازدواج) في المرواحة بين استعمال الفصحى والعامية الذي يزعمونه ظاهرة فريدة خصت به اللغة العربية دون اللغات ، وهو ظاهرة بشرية ، تشمل كل اللغات : قديمها وحديثها ، لهما جميعا لغة متأنقة دقيقة للفكر وللأدب ، ولها لغة أخرى أقل دقة وجمالا ، وأدنى درجة ووقارا ، للتعامل اليومي ، وهي لغة متحولة متغيرة ، لم تحظ بعناية العلماء والأدباء إلا في أيامنا هذه ، التي كثر فيها التهريج في التمسح باسم الشعب ، والتشدد بالفنون الشعبية"¹⁸.

أما الرافضون إليها والواقفون منها موقفا سلبيا فيرون في ظهور العاميات على ساحتنا العربية عزوف عن الفصحى وتمزق للأمة وتشردمها ، وانقطاع للأواصر بينها في السياسة والاقتصاد. لتصبح كل دولة شعبا مستقلا يباعد الزمن بينه وبين أشقائه، ويقل تبعاً لذلك الاتصال الفكري والاجتماعي، وتتوقع كل دولة على نفسها في بيئتها الضيقة المحدودة، ويتولد من ذلك تفكك اجتماعي يتبعه تفكك لغوي منحدر¹⁹. وهذا ما يؤكد الأفغاني حيث يقول: "هذا هو منشأ اللغات العامية تحلى أعراضاً مرضية لا تعرفها الأمة في صحتها وقوتها ووحدها"²⁰.

يقضي الطفل سنينه الأولى في التقاط مفردات لغته الأولى من العامية بحيث تترسخ في ذهنه وتتمكن من ملكته اللغوية وحين تتاح له فرصة التعليم في المدرسة يصبح من الصعب إحلال الفصحى محل العامية إلا من خلال تعليم قوي للفصحى ومدة طويلة وبذلك تصبح فرصة النجاح ضئيلة في ظل منهج ضعيف كما وكيفا للغة العربية الفصحى ، خصوصا إذا تمكنت العامية من الانتشار على نطاق واسع فحتما سوف يؤدي ذلك إلى إضعافها في عقول والسنة أبنائها و بالتالي وجود بيئة لغوية مستضعفة تتسلل إليها مفردات اللغات الأجنبية حيث إن العامية ليست ندا للغات الأجنبية في غياب لغة شريفة كالفصحى. إن وجود تعددية اللهجات يخلق عوائق كثيرة أمام التلاميذ العرب، لأنهم ولدوا ناطقين باللغة المحكية، ولكنهم يُجبرون عند ممارستهم الكتابة والقراءة، على استعمال اللغة الفصحى، ويبدؤون في مواجهة ومجابهة حقيقية لهذه

المشكلة عندما يلتحقون بالصف الأول من الدراسة، فمسألة الازدواجية ليست جديدة على العالم العربي، لكن مشكلاتها في ميدان تعلم اللغة ما زالت تلازم العالم العربي و تشكل تحدياً كبيراً واعتُبرت مُعيقة لعمليات التعريب، وتزيد من المعدّلات العالية للأمية، وتكلف العقل العربي إرهاقاً ذهنياً يحط من قدراته، كما يشتت ملكاته الفكرية، ولأن الإنسان - كما هو معروف - لا يفكر بطريقة مجردة وإنما من خلال كلمات تتشكل في عقله، فإن العربي مهدد بانفصام في التفكير: هل يفكر بالفصحى أم بالعامية؟ وأيا كانت الإجابة فمن المؤكد أن هناك تشويشا في عقله لا يساعده على الوضوح الذهني²¹.

فالنص الذي يدرسه ويدرسه يكتب بالعربية الفصحى والحديث يأتي على لسانه بالعامية أو الدارجة واللغة بطبيعتها. " لا تتجزأ ولا تكون صالحة للآداب دون أن تكون صالحة للعلوم، ولا تكون صالحة في الشارع دون أن تكون صالحة في التعليم ولا تكون صالحة في المرحلة الابتدائية دون أن تكون صالحة في المرحلة الجامعية"²². إن اللغة ليست أداة اتصال فحسب، ولكنها محتوى فكر ورصيد ثقافة، والعامية واستعمالها دليل " تفكك اجتماعي ثم تفكك فكري لغوي منحدر وهذا هو منشأ اللهجات العامية المحلية تتجلى أعراضاً مرضية لا تعرفها الأمة في صحتها وقوتها و وحدتها،"²³ ولا تزال هذه الأعراض مستمرة دائمة إلا إذا أخضعت للعلاج الدائم واتخذ الحزم القاطع في سبيل وقف أسبابها وعوامل انتشارها. إن ما يلاحظ اليوم في عالمنا العربي مزاحمة فاعلة وقوية للغة الفصحى ذات شقين أحدهما: العاميات المنتشرة في البلاد العربية نتيجة الجهل والأمية التي سادت العالم العربي منذ زمن بعيد، وثانيهما مزاحمة اللغات الأجنبية لها في موطنها وعلى ألسنة أبنائها الأمر الذي ولد شعورا بأهمية العمل من أجل مستقبل اللغة العربية الفصحى، ولكن هذا الشعور وتلك المحاولات لم تثبت أمام التغيرات الكبيرة التي يواجهها العالم العربي اليوم حيث صار الحديث عن عامل اللغة العربية والأجنبية يأخذ أبعاداً كثيرة، فالآراء التي تنادي بجعل اللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية لغة التعلم في الجامعات العربية كثيرة خصوصاً في دول المغرب العربي فكلها تدرس في مدارسها وفي جامعاتها باللغة الفرنسية وهي اللغة الأولى في هذه الدول، والمغاربة والجزائريون يجيد المتعلمون منهم الفرنسية ويجسّدونها تحدثاً وكتابة مثل الفرنسيين ومع هذه الإجابة للغة لم يحدث فيها تقدم يذكر ولا أصبحوا مثل أقرانهم الفرنسيين ولا قاربوا ذلك، والسبب هو الازدواج الثقافي والذهني بين الفرنسية لغة التعلم وبين البيئة العربية، فقد خلق انعدام التوازن نوعاً من التشتت الذهني فتولد عن ذلك نوع من الازدواج الثقافي الذي لا يساعد على الإبداع، فتعلم اللغة الأجنبية في غاية الأهمية ويجب أن يكون تعلمها في الجامعة لازماً إلا أنه لا يجب أن تكون لغة التعليم، فالكثير من الباحثين يعتبرون الوضع الازدواجي عائقاً للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي خصوصاً لواقع المعرفة في الوطن العربي يقول العناني وبرهومة: "إن واقع المعرفة في البلدان العربية، استقبالياً وتوظيفاً وتوليداً، واقع محزن ومخجل بالمقارنة بالكثير مع دول العالم النامي، دع عنك العالم المتقدم. ويزيد الأمر ذلك سوءاً التبعية اللغوية التي تعيشها الدول العربية، أو ما يسمى العولمة اللغوية، أكان ذلك على المستوى الفردي أم المستوى الرسمي".

و إذا ما استمر زحف العاميات وتراجع من الفصحى، سيؤول طغيان الأولى التي تحررت من ضوابط العربية، وسماها المميّزة على لغة الخطاب اليومي في جميع الأقاليم الإسلامية، وانحصار الفصحى فقط في مجال الدرس والعلم والأدب، وهي لغة أهل العلم والمتقنين، لأن الاعتناء بالعامية يؤثر تأثيراً خطيراً على الفصحى، وعلى الأمة بأسرها، ففي تبني العامية في الأمة العربية عودة إلى جاهلية مجتمعا العربي في الحياة اللغوية، فإذا ما اتخذت العامية لغة الثقافة في كل قطر عربي؛ فإن ذلك سيؤدي إلى تقطيع أواصر الوطن العربي، وتثبيت التجزئة والانفصال بين الأصقاع العربية، والتكرار لتراث

أمتنا الحضاري، و إضعاف للتلاميذ على مستوى التعبير والفهم، فما يتعلمه التلميذ من دروس اللغة يهدمه ما يسمعه من عامية في الجو الاجتماعي المحيط به في الشارع والمترل وغيرهما.

و لعلاج الظاهرة يرى أصحاب هذا الرأي ما يلي :

تقريب الفجوة بين العامية والفصحى، والارتقاء بالعامية تدريجياً نحو الفصحى، عن طريق الأسرة والمجتمع، فالأسرة ترتقي بلغة أفرادها بتشجيعهم على حفظ القرآن والحديث النبوي، والقراءة المفيدة، وتكوين المكتبة المنزلية.

ويمكن للقائمين على المجتمع أن يهيئوه لممارسة العربية الصحيحة، والارتقاء بالعامية نحو الفصحى، بالحديث السليم، والقراءة الحالية من الأخطاء. وهذا يتطلب العمل على محو الأمية ونشر التعليم، وإعداد المعلم الكفاء، وتشجيع المكتبات المدرسية والمركزية، والتزام العربية عند التحدث إلى المواطنين مباشرة أو عن طريق الإعلام بوسائله المختلفة.

مواجهة كل الشبهات الموجهة إلى العربية بحزم وعزم، وردّ كل الهجمات التي تحاول صرف بني العربية عنها.

دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة علمية، لا لغرض استبدالها بالفصحى كما هو حاصل، وإنما لمستويين علمي يتمثل في إقرار الألفاظ الصحيحة، وتصحيح الحرف، وتعريب الأعجمي، وتعليمي يتمثل في النهوض بلغة أبنائنا تدريجياً إلى مصاف الفصحى، وغرس حبها في نفوسهم بالاعتماد على الألفاظ الصحيحة المشتركة بين العامية والفصحى في مراحل التعليم المختلفة.

الاعتناء بوسائل الإعلام المختلفة، لما لها من دور خطير في النهوض بالعربية.

و ختاماً فإن اللغة ظاهرة متغيرة ومؤقتة ، وخاضعة لقوانين التطور ، مع اختلاف في الاستجابة لهذه القوانين بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ؛ إذ اللغة المكتوبة ثابتة جامدة بطيئة التغير على حين ينطبق قانون التغير السريع على لغة الخطاب، وهي أوسع انتشاراً ، وأقدر على البقاء من اللغة المنطوقة ذات المدى القصير، والنطاق المحدود، والزوال السريع، التي تكتفي بأبسط وسائل التعبير صوتاً ، وبنيةً ، وتركيباً ، ومفردات.

ولا شك في أن اللغة الواحدة، إن أمكن إيجاد مثل ذلك اللغة للكتابة والحديث في البيت والشارع والمدرسة والمكتب، هو وضع مثالي. لكن هل يمكن ذلك؟ إن ذلك شبه مستحيل، إذ أن كل لغة في العالم تواجه وضعاً ازدواجياً بشكل أو بآخر. فالجانب إن الازدواجية اللغوية أمر طبيعي وبأية لغة لئن كان هناك أي فرق بين ازدواجية اللغة العربية واللغات العالمية الأخرى كالانجليزية والفرنسية، فإنه فرق كمّي، إذ ربما كانت الفجوة وما زالت أضيق بين الفصحى والعامية في تلك اللغات مما هي في العربية وما ذلك إلا بسبب عمل القوانين الطبيعية للتغير اللغوي. ففي كل أمة لغة كتابة ولغة حديث، وفي كل أمة لهجة تمهيد ولهجة ابتذال، وفي كل أمة كلام له قواعد وأصول، وكلام لا قواعد له ولا أصول، وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة، وما بقي ناس يتميزون في المدارك والأذواق.

يرى هادي نمر أن "وجود أكثر من لهجة أو لغة في الأداء اللغوي للأمة أو الشعب هي مسألة طبيعية عندما تكون هذه النوعيات أو اللهجات و الأساليب تمثل ظاهرة نفسية متصلة و مترابطة في كيان لغوي واحد " إذن لا يمكن أن نتحدث عن وجود انفصال بين المستويات اللغوية أو هيمنة ، و إنما نتواجد أشكال لغوية من لغة واحدة لا يمكن أن توجد إلا لتؤدي وظائف متكاملة ، وهذا ما عبر عنه قمبرز (gumperz). بمصطلح الاستمرار أو الوظيفة التكاملية fonction complémentaire فالأصناف اللغوية تكمل الواحدة وظائف الأخرى .

كل اللغات يمكن أن تصبح حية إذا ظل أبنائها أحياء، وأصروا على ذلك، مثل الأمم الأخرى، والعكس صحيح، فإذا كان أبناء الأمة، أو المنتسبون إليها، ميتين أو ضعافاً، فلا تُحييهم ولا تُقويهم لغاتهم، مهما تكن راقية، ولا ترفع من شأنهم

اللغات الأجنبية التي يتبنونها ويفرضونها على الشعوب كلغات تعليم وإدارة وإعلام في أوطانهم، لينافسوا بها لغاتهم القومية، وهذا ما تثبته البحوث و الدراسات و التجارب الميدانية ، أما آن لنا أن نعود إلى رشدنا، ونتمسك بلغتنا؛ لنبلغ مجدنا، ونصنع سؤددنا.

هوامش البحث :

- 1 - لسان العرب، ص 13.
- 2 - سعيد نفوسة زكريا ، تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر، دار الثقافة للنشر ، الإسكندرية ، 1964، ط 1 ، ص 4،3 .
- 3 - الزبيدي الأندلسي ، طبقات النحويين واللغويين ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص39، ط2، دار المعارف ، مصر- القاهرة د ت.
- 4 - الخصائص ، ج 2 ، ص 10 وما بعدها .
- 5 - السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج 1 ، ص 229 ، شرح وتعليق محمد جاد المولى بك وآخرون ، المكتبة المصرية ، صيدا - بيروت 1987م .
- 6 - موسى نهاد ، ندوة الازدواجية في اللغة العربية، ص 88 .
- 7 - أنور الجندى، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ص 126 - 127 .
- 8 - الفصحى في مواجهة التحديات، ص 111-133.
- 9 - Dubois Jaen et al dictionnaire de linguistique larousse Paris 1973 p 26.
- 10 - André Louis Sanguin les aires linguistique in encyclopédie de géographie economica Paris 1995 p903.
- 11 - Georges Mounin dictionnaire de la linguistique PUF paris 1993 p64.
- 12- إيمان ريمان و علي درويش، بين العامة والفصحى: مسألة الازدواجية في اللغة العربية في زمن العولمة و الإعلام الفضائي ، منشورات شركة رايتسكوب ، استراليا ، ط 1 ، 2008 ، ص 97/96.
- 13 - علي الخولي ، الحياة مع لغتين، جامعة الملك سعود، الرياض، ط 1، 1988 ، ص 17-18 .
- 14 - Jean Dubois et autres : Dictionnaire de linguistique, P,65
- 15 - أنيس فريجة ، نحو عربية ميسرة ، دار الثقافة بيروت ، 1973، ص 134 .
- 16 - Sélim Abou , le bilinguisme Arabe Français au Liban ; p223
- 17 - كمال الحاج ، في فلسفة اللغة ، ص 156 .
- 18 - فقه اللغة بين الأصالة والتعريب (مجلة كلية اللغة العربية بالرياض) ، عدد (11) ص 214 .
- 19 - مجد البرازي، مشكلات اللغة العربية المعاصرة مكتبة الرسالة ، عمان ، ط 1، 1989، ص 55 .
- 20 - سعيد الأفغاني، من حاضر اللغة العربية، دار الفكر دمشق، ط 2، 1971 ، ص 160 .
- 21 - شريف الشوباشي ، لتحيا اللغة العربية ويسقط سيبويه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2004 ، ص 147 .
- 22- فلسفة اللغة، دار النهار للنشر، بيروت ، 1967 م ، ص 282.
- 23- سعيد الأفغاني، من حاضر اللغة العربية، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1971، ص 160 .